جماليات المقابلة عند ابن قيم الجوزية
(موضوعات الإيمان من كتابه الفوائد أنموذجًا)

د٠ أمينة بنت سعود بن خيشان القرشي (*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، **وبعد:**

إن المتأمل في جوهر البلاغة العربية يجدها قائمة على عُمدٍ رئيسية مبدؤها النظم، ومنتهاها التحبير، وهذه العُمد مما اصطلح العلماء على تسميتها بـ(مقومات بلاغة الخطاب)، وتنحصر تلك المقومات في "حسن الدلالة، وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى، وأزين، وآنق، وأعجب، وأحق بأن تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد"(١).

ومن هنا؛ فإن محاولات الدارسين(٢) في بيان خصوصية النظم وما يُبنى عليه من أسس علمية، قوامها توخي معاني النحو؛ أمدت البيان البليغ بأبعاد دلالية أوسع وأرحب، فأصبحت البلاغة أداة كاشفة تهتم بالمعاني، وطرق إيصالها؛ ليتم حسن الفهم، والإفهام، "فمدار الأمر، والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما

(*) الأستاذ المساعد بكلية العلوم والآداب بالمندق، تخصص البلاغة والنقد –جامعة الباحة.

(١) دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، (مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م)، ص٤٣.

(٢) أمثال: الجاحظ في كتابه: البيان والتبيين، والجرجاني في كتابيه: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة.

هو: الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[١].

ولو جال النظر والتبصر في بيان البلاغيين من أهل العلم، لوجد أن ابن قيم الجوزية[٢] مِنْ خير مَن التزم بمنهاج الإبانة، والإفهام، "فكل علم يؤدي إلى العرفان بمنهاج الإبانة والإفهام لبيان الوحي قرآنًا وسنة هو عمود من عُمُد العوامل التي تحقق للعبد شيئًا من الرؤية القلبية"[٣]، وقد تمثلت الرؤية القلبية في حسن الفقه والفهم لمعاني العقيدة الإسلامية، وكتابه (الفوائد) من أنفع الأسفار الجامعة لجليل المعاني، وبديع الإشارات، التي تُعد امتدادًا لتوضيح ماهيات التشريع الإسلامي بصفة عامة، وعلى وجه الخصوص أركان الدين من: اعتناق التوحيد، والإخلاص فيه، وترك الشرك، والبراءة منه، وما يترتب على الأصلين –التوحيد، والشرك– من ملتزمات (الهداية والضلال)، و(السعادة والشقاء)، و(النعيم والعذاب)، و(الجنة والنار)، وغيرها مما يوجب الإيمان ويوطنه، ويبطل الكفر ويبعده. وقد أكثر ابن قيم الجوزية في بيانها بأسلوبه البليغ الماهر الحذق؛ إذ عمد إلى ألوان من البلاغة كوسائل إيضاح، وإقناع، وتأثير، والشأن في جميع ألوان البلاغة من بيان، ومعانٍ، وبديع، أن "تُكسب المعاني نبلًا وفضلًا، وتُوجب لها شرفًا، وأن تُفخمها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين"[٤].

---

(١) البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، (مكتبة الخانجي، القاهرة)، ص١١.

(٢) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعيد بن حريز الزرعي الدمشقي، الملقب بشمس الدين ابن قيم الجوزية، من علماء القرن الثامن الهجري، توفي سنة (٧٥١هـ). ينظر: الأعلام، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، (دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م)، ٥٦/٦.

(٣) اتساع الرؤية القلبية للمعنى القرآني: العوامل والعوائق، لمحمود توفيق محمد سعد، (المجلة العلمية لكلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا، العدد الرابع، ١٤٤٠هـ–٢٠١٨م)، ص٣١١.

(٤) دلائل الإعجاز، ص٧١.

ومن أكثر الظواهر البلاغية التي برزت في كتاب الفوائد (المقابلة)، فجاء هذا البحث بعنوان (جماليات المقابلة عند ابن قيم الجوزية "موضوعات الإيمان من كتابه الفوائد أنموذجًا")، والأسباب التي دعت إلى اختيار هذا العنوان عديدة، منها:

- ندرة الدراسات البلاغية التي تناولت مؤلفات ابن قيم الجوزية، وبالأخص كتابه (الفوائد).

- ما تُحققه المقابلة من تصاعد المعاني في سياق الوعد والوعيد، فموضوعات الإيمان والكفر تصف مشاهد وأحداثًا متقابلة متنافرة متناقضة حينًا، ومتوافقة متماثلة حينًا آخر.

- التقابل بين التراكيب خاصية أسلوبية، دلالية تميز بها كتاب (الفوائد)، فجاء في موضوعات متعددة، منها على سبيل التمثيل: (الإيمان والكفر)، و(الهدى والضلال)، و(الجنة والنار)، و(المبدأ والمعاد)، و(المحبة والكره)، من هنا؛ فالمقابلة لونٌ أسلوبيٌّ ذو أبعاد وظيفية دلالية نفسية يقتضيها السياق وفقًا لمقتضى الحال.

ويهدف مجال النظر التطبيقي لدراسة المقابلة في كتاب (الفوائد) إلى توظيف غايات ومقاصد، منها:

- دراسة الأثر الذي تُحدثه المقابلة في السياق النصي من كتاب (الفوائد).

- بيان الوظائف الدلالية لأسلوب المقابلة، والكشف عن أهميتها في تجلية المعاني المقصودة.

- معرفة القيم المعنوية التي يُحققها أسلوب المقابلة، من: البيان، والإيضاح، والوعظ، والإرشاد، والتنبيه، والإنذار، والتحذير، والإغراء، والإقناع، والإمتاع، ووراء هذه القيم معانٍ دلالية، تربوية، نفسية، فالمقابلة فنٌّ بديعيٌّ لا يقف عند حدود التلوين الموسيقي، بل يتعداه إلى تلك الغايات والمقاصد.

وتتمركز مشكلة البحث في عدة أمور، هي:

- بيان الأثر الدلالي الوظيفي لأسلوب المقابلة.

- بيان المقاصد والغايات التي يُحققها أسلوب المقابلة داخل البناء التركيبي في النص.

- توظيف الخصائص التركيبية الجمالية توظيفًا يُحقق للنصوص البلاغة، والبيان، والدقة، والإيجاز.

وتتفرع عنها عدة تساؤلات، جاءت على النحو الآتي:

س١: ما المفهوم الاصطلاحي لأسلوب المقابلة عند البلاغيين؟.

س٢: هل تصح المقابلة في المشاهد والأحداث التي تقوم على المقارنة والموازنة دون اعتبار لمبدأ (الطباق، والترتيب، والتوافق العددي) بين الطرفين المتقابلين؟.

س٢: هل لأسلوب المقابلة في البناء النصي أبعاد وظيفية دلالية وقيم تربوية يقتضيها السياق؟.

س٣: ما مدى توظيف الخصائص التركيبية التصويرية في أساليب المقابلة، وكيف يمكن استثمار تحقق هذا التوظيف في دراسة مكونات الأسلوب من جهة البناء التركيبي، ومن جهة علاقته بالأسلوب، وما أثر ذلك في المعنى والنفس؟.

س٤: هل للمقابلة أثر في تحقيق الإقناع والإمتاع؟.

الدراسات السابقة: من أبرز الدراسات السابقة حول أسلوب المقابلة ما يأتي:

الدراسة الأولى: تقابل المعاني في سورة محمد، لعبد العزيز بن صالح العمار، (مجلة العلوم العربية، العدد الخامس والعشرون، شوال ١٤٣٣هـ)، ركزت الدراسة على النظر إلى مفهوم التقابل، من خلال حديث علماء البلاغة قديمًا وحديثًا؛ لهدف استخلاص رؤية جديدة؛ لإعادة النظر في دلالات مصطلح المقابلة، اعتمادًا على ما ورد عند العلماء المحدثين، أمثال: عبد الفتاح عثمان في

كتابه: **دراسات في علم المعاني والبديع**، ومحمد أبو ستيت الشحات في كتابه: **دراسات منهجية في علم البديع**، وعبد الواحد علام في كتابه: **البديع والقيمة**، فإن هذه الرؤية تضيف لمفهوم المقابلة اتساعًا وتفننًا في المعنى؛ بحيث تتجاوز حد **(التضاد، والترتيب، والعدد)**، وتجعل المقابلة جزءًا من تقابل المعاني، تنطوي فيه ألوان المفارقة والموازنة التصويرية التي يبرز فيها التناقض في المواقف، والأفكار، والأحداث، دون النظر إلى اعتبارات البلاغيين في مصطلح المقابلة، فقد يقابل الأقل بالأكثر، ويقابل الأكثر بالأقل(١).

وضمت الدراسة مبحثين، الأول: تقابل المعاني: المراد بها، أهميتها، دلالتها. والثاني: بلاغة آيات المقابلة، ودراستها بمنهج استقرائي تحليلي.

الدراسة الثانية: التقابل الدلالي في سورة فاطر (مدخل أسلوبي بلاغي)، لعبد الرحمن علي عوض العمري الحربي، (مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد السادس، العدد (٢)، محرم ١٤٤١هـ، أيلول ٢٠١٩م)، وجاءت هذه الدراسة على النحو الآتي: المبحث الأول بعنوان: التقابل الدلالي – دراسة نظرية، وفيه تحدث عن مفهوم التقابل الدلالي، وبيان أهميته، وبيان أنواعه. والمبحث الثاني بعنوان: التقابل الدلالي في سورة فاطر، فقسم المبحث إلى: بنى ثنائية التقابل، وبنى متعددة التقابل، والتقابل الضمني، فدرس السورة بناءً على هذا التقسيم بمنهج تحليلي أسلوبي بلاغي.

الدراسة الثالثة: التقابل الدلالي في سورة الحديد، لهديل رعد تحسين، (مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية)، وتضمنت الدراسة مبحثين، الأول: المفهوم اللغوي والاصطلاحي للتقابل، وأنواع المقابلة. والثاني: دراسة الجانب الفني للتقابل، بمنهج تحليلي أسلوبي.

---

(١) ينظر: تقابل المعاني في سورة محمد، لعبد العزيز بن صالح العمار، (مجلة العلوم العربية، العدد الخامس والعشرون، شوال ١٤٣٣هـ)، ص٢١.

الدراسة الرابعة: بنية التقابل وأثرها في توليد دلالة النص القرآني (سورة الليل أنموذجًا)، لفايز عارف القرعان، وتضمنت الدراسة بيان المفهوم الاصطلاحي للتقابل، ودراسة أبنية التقابل الأسلوبية في السورة، وكل ذلك بمنهج أسلوبي. وله دراسة أخرى بعنوان: التقابل والتماثل في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية، (جامعة اليرموك، الأردن، ط١، ٢٠٠٦م)، وضمت أربعة فصول، الأول بعنوان: مفهوم التقابل والتماثل، والثاني بعنوان: أنماط التقابل والتماثل في القرآن، والثالث بعنوان: التقابل والتماثل في محاور القرآن، والرابع بعنوان: دور التقابل والتماثل في إنتاج الدلالة.

خطة البحث:

مقدمة: وتحتوي على: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وتساؤلات البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهجه.

التمهيد: وفيه:

أولًا: المعنى اللغوي للمقابلة.

ثانيًا: المفهوم الاصطلاحي للمقابلة عند البلاغيين.

ثالثًا: توسع المصطلح الدلالي للمقابلة في الدراسات المعاصرة.

المبحث الأول: منهج ابن قيم الجوزية في إيراد المقابلة، وبيان وظائفها الدلالية.

المبحث الثاني: جماليات المقابلة في موضوعات الإيمان: من حيث السياق، والصورة، وأثرها في المتلقي.

منهج البحث: منهج استقرائي تحليلي؛ في تتبع صور المقابلة في كتاب (الفوائد)، ثم دراستها في موضوعات (الإيمان والكفر) وفق طرائق التحليل البلاغي؛ للكشف عن القيم التركيبية، والدلالية، والتصويرية، والإيقاعية.

التمهيد

من الظواهر الأسلوبية البارزة في كتاب (الفوائد) أسلوب المقابلة، فلا يخفى ما لهذا الكتاب من دور كبير في (الإصلاح، والتربية، والتهذيب)؛ من أجل ترسيخ مقاصد التشريع الإيماني ببيان مقنع مؤثر، يصف صورًا، وأحداثًا، متغايرة تارة، ومتوافقة أخرى، كالمعاني الواصفة لأحوال (الإيمان والكفر)، وما تقتضيه من المفارقة الفاصلة بين الألفاظ في استحضار صور ذات شقين؛ الأول: زاخر بما يرغب النفس، والثاني: مشحون بما يرهبها، فـ"فضائل الأشياء تعرف بأضدادها، فالخير يعرف بالشر، والنفع يعرف بالضرّ"[(١)]، والله تعالى في "كتابه يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار؛ إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف"[(٢)]. وهذه النصوص تُبين عن الأسرار والمزايا للمقابلة ... ومن هنا لا بد من الوقوف على المعنيين اللغوي، والبلاغي لمفهوم المقابلة، ثم النظر في آراء الدراسات المعاصرة حول التوسع في المفهوم الاصطلاحي، وتوجيه القول فيها بما جاء عند أهل العلم.

أولاً: المعنى اللغوي للمقابلة:

المقابلة في أصلها اللغوي (ق–ب–ل)، ومن معانيها: (الطاقة، والمواجهة، والمعارضة، والضم)، فالفراهيدي أشار إلى معنى (الطاقة) قائلًا: "القِبَل: الطاقة، تقول: لا قِبَل لهم"[(٣)]، وابن فارس أشار إلى معنى (المواجهة) في قوله: "القاف، والباء، واللام، أصل واحد صحيح، يدل على مواجهة الشيء للشيء ... يقال:

---

(١) تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، (دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان)، ص٥٧.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الزمخشري، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ)، ١٠٤/١.

(٣) العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، (دار الهلال)، ١٦٦/٥.

فعل ذلك قِبَلًا، أي: مواجهة، وَقَابَلْتُهَا: جَعَلْتُ لَهَا قِبَالَيْنِ؛ لأن كل واحد منهما يُقبل على الآخر"[١]، وابن منظور أشار إلى معنى (الضم، والمعارضة) إذ يقول: "قابل الشيء بالشيء مقابلة وقِبالًا، وإذا ضممت شيئًا إلى شيء قلت: قابلته به، ومقابلة الكتاب بالكتاب وقِباله به: معارضته، وتقابل القوم: استقبل بعضهم بعضًا"[٢].

وعليه؛ فإن المعنى اللغوي للمقابلة في المعاجم العربية ينحصر في (المواجهة، والمعارضة)، وهي ألفاظ تستلزم وجود طرفين كل واحد منهما يقابل الآخر أو يخالفه، فيحصل بينهما قدر كبير من التماسك، والترابط، والانسجام، والالتحام، والتعالق في بناء الصور المتقابلة، وهذه معانٍ تتلاءم مع المفهوم الاصطلاحي للمقابلة عند البلاغيين.

ثانيًا: المفهوم الاصطلاحي للمقابلة عند البلاغيين:

وقف العلماء على أسلوب المقابلة بالبيان والتفسير[٣]، ومن بينهم: قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) إذ يقول: و(صحة المقابلات) "أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها، أو المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة، أو يشرط شروطًا ويعدد أحوالًا في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدده، وفيما يخالف بأضداد ذلك"[٤]، وهذا

---

(١) مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، ص٥١-٥٢.

(٢) لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين بن منظور محمد بن مكرم بن علي الإفريقي، (دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ)، ١١/٥٤٠.

(٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، لأحمد مطلوب، (مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠٠٧م)، ص٦٣٥-٦٤٠.

(٤) نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي، (مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط١، ١٣٠٢هـ)، ص٤٧.

التعريف قاعدة للعلماء من بعده، أمثال: أبي هلال العسكري (٣٩٥هـ)[١]، وابن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ)[٢]، وابن أبي الأصبع المصري (٦٥٤هـ)[٣]، فقد اتفقوا في المعنى الدلالي للمقابلة، مع تغاير في نسج الصيغ التعبيرية له.

وأما الخطيب القزويني (٧٣٩هـ) فقد حرر المصطلح بصورة أكثر دقة؛ بحيث حصر تعريفه، وحدد ضوابطه، فأدرج المقابلة في ألوان البديع المعنوية، وعرفها بقوله: "أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلاف التقابل"[٤].

وحاصل حديث العلماء يندرج في ضرورة الالتزام في مفهوم المقابلة بعدة شروط، وهي: **(التضاد، والترتيب، والتوافق العددي بين الطرفين)**، وهذه الشروط قيدت المصطلح، وحصرته في نوع خاص من الأساليب؛ حتى لا يختلط بغيره من ألوان البلاغة القائمة على مبدأ الجمع بين المتقابلات، والمتماثلات، والمتناسبات، والمتشابهات بين المعاني.

ثالثًا: توسع المصطلح الدلالي للمقابلة في الدراسات المعاصرة:

واللافت للنظر أن بعض الدراسات البلاغية لأساليب البديع –وعلى الخصوص المقابلة– ذهبت إلى ضرورة البعد بأسلوب المقابلة عن التقابل بين الألفاظ

---

(١) كتب الصناعتين: الكتابة والشعر، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، (المكتبة العنصرية، بيروت)، ص٣٣٧.

(٢) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ-١٩٨١م)، ٢٣/٢.

(٣) ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، (القاهرة، ١٣٨٣هـ)، ١٧٩/١.

(٤) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعيدي، (مكتبة الآداب، ط١٦، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م)، ٥٨٠/٤.

المتماثلة في اشتراك الطرفين في خاصية (التضاد، والترتيب)، بل الأهم –فيما ذهبت إليه– دراسة التقابل بغض النظر عن (التضاد، والترتيب، والتوافق العددي) بين الطرفين المتقابلين، فقد يقابل الأقل بالأكثر، والعكس، بشرط حصول التناسب بين المواقف، والصور، والأحداث، ومن تلك الدراسات ما يأتي:

دراسة بعنوان: (دراسات منهجية في علم البديع)، وتُعد من الدراسات القائلة بضرورة التوسع الدلالي في مفهوم المقابلة؛ حيث ذكرت أن المقابلة **لا يشترط أن تكون في المعاني المتقابلة، بل تأتي بالمخالف، والموافق، والمضاد، وغيره على السواء**(١).

ودراسة بعنوان: (تقابل المعاني في سورة محمد)، وهي على غرار ما ذهبت إليه الدراسة السابقة؛ حيث قدمت رؤية جديدة لمفهوم المقابلة، وجعلت التقابل ليس محصورًا بين الألفاظ، بل يتعدى ذلك إلى التقابل بين المعاني(٢)، دون حصر القول في (التضاد، والترتيب، والعدد)، وهي دراسة تدعو إلى "توسيع دائرة المقابلة، والإشارة إلى أنها أوسع بكثير من أن تُضيق بمجرد التقابل بين الألفاظ، قلّت أو كثرت"(٣).

والحجة والغاية التي ذهبت إليها هذه الدراسات تكمن في: "أن المقابلة تضم المشاهد التي تنهض على الموازنات والمقارنات بين أنماط مختلفة وأصناف متباينة، وإن لم يكن أطرافها متساوية العدد، متضادة المعاني، منظومة على الترتيب"(٤)، وعليه؛ فالمشاهد والأحداث مما يرد على نمط المقارنة والموازنة يجب أن تنطوي تحت لواء المقابلة(٥).

---

(١) ينظر: دراسات منهجية في علم البديع، للشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت، (ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م)، ص٦٣.
(٢) ينظر: السابق.
(٣) ينظر: السابق.
(٤) ينظر: تقابل المعاني في سورة محمد، ص١٧.
(٥) ينظر: المرجع السابق، ص٣١.

والجدير بالذكر في هذا الباب أمران، **الأول:** يجب اعتماد المقابلة فنًّا بديعيًّا معنويًّا قائمًا على مبدأ (التضاد، والترتيب، والتوافق العددي)، كما هو الشأن في منهج السكاكي، والخطيب، وجمهور البلاغيين؛ لدفع الإيهام، واللبس، ولمنع تداخل المصطلحات المقاربة للمقابلة ، كالتناسب، واللف والنشر، والتقسيم، وغيرها. **والثاني:** أن هذا اللون من التقابل –يطلق عليه: تقابل المعاني– لون غائب عن الدرس البلاغي، وباب جليل في القرآن، والحديث، والشعر، والرسائل، والخطب، وفنون الكلام كلها، ويدخل تحت هذا الباب تقابل المعاني في السورة الواحدة، وفي السور الطوال، وفي السور المتجاورة كالطواسيم، والحواميم، وهو باب من التفتيش عن المعاني، واستخراج عناصرها المتشابهة، وعناصرها المتقابلة، ووضع ما تشابه في مواجهة ما تخالف، ثم دراسة ذلك وتحليله، وهو باب غير باب المقابلة عند البلاغيين[1].

وخلاصة القول: أن يدرس هذا اللون من التقابل تحت ما يُسمى بـ(تقابل المعاني)، ومن صور هذا التقابل عند ابن قيم الجوزية في كتابه (الفوائد) أنه لجأ إلى لون من تقابل المعاني يقوم على ربط الأمور المتناسبة، والمتشابهة، والمتخالفة، دون نظر إلى خصائص أسلوب المقابلة، ومن الشواهد على ذلك قوله:

– **(فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك، فهنالك السرور، والنعيم، واللذة، والبهجة، والفرح، وقرة العين، وطيب الحياة، وانشرح الصدر، والفوز بالغنائم. وإذا كانت النوبة للنفس والهوى والشيطان، فهنالك الغموم، والهموم، والأحزان، وأنواع المكاره، وضيق الصدر، وحبس الملك)**[2]، فبين طرفي الصورة تقابل

(١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، دراسة في سمت الكلام الأول، لمحمد محمد أبو موسى، (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٣٠هـ–٢٠٠٩م)، ص٣٩٨ وما بعدها.

(٢) الفوائد، لأبي بكر محمد بن قيم الجوزية، (دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م)، ص٨٢.

دلالي بليغ، فقد جمع بين متناقضين، هما: (العداوة بين الشيطان والملك)، و(العداوة بين العقل والهوى)، و(العداوة بين النفس الأمارة والقلب)، فكل طرف يستلزم وجود الآخر، ويستدعيه، ويطلبه؛ رغبة في بيان البون الشاسع بينهما؛ لذا أجمل ابن قيم الجوزية ما للقلب والعقل والملك من مكامن السرور والأنس، وأجمل ما للنفس والهوى والشيطان من مكامن الأحزان والوحشة، فحقق في النظم انتظامًا بين الألفاظ، وتلاحمًا في ربط بعضها ببعض.

- **(دعاهم إلى النظر في العالم العلوي، وبنائه، وارتفاعه، واستوائه، وحسنه، والتئامه، ثم إلى العالم السفلي، وهو الأرض، وكيف بسطها وهيأها بالبسط لما يراد منها، وثبتها بالجبال، وأودع فيها المنافع، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته)**[1]، فبين طرفي الصورة في الجمع بين العالمين (العلوي) ونظيره (السفلي) تقابل ظاهر في المعاني.

- **(والإخلاص والتوحيد شجرة القلب،** فروعها الأعمال، وثمرها طيب الحياة في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك، **والشرك، والكذب، والرياء شجرة القلب،** ثمرها في الدنيا الخوف، والهم، والغم، وضيق الصدر، وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة الزقوم، والعذاب المقيم)[2]، وقوله: **(فعند الرفيق الأعلى** كل قرة عين، وكل نعيم، وسرور، وبهجة، ولذة، وحياة طيبة، **وعند الرفيق الأسفل** كل هم، وغم، وضيق، وحزن، وحياة نكدة، ومعيشة ضنك)[3]، وقوله: **(ومن علامات السعادة والفلاح** أن العبد كلما زيد **في علمه** زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد **في عمله**

(١) المرجع السابق، ص١٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢٦.

(٣) المرجع السابق، ص٢٣٠.

زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد **في عمره** نقص من حرصه، وكلما زيد **في ماله** زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد **قدره وجاهه** زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم. **ومن علامات الشقاوة** أنه كلما زيد **في علمه** زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد **في عمله** زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد **في عمره** زيد في حرصه، وكلما زيد **في ماله** زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في **قدره وجاهه** زيد في كبره وتيهه، وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده، فيسعد بها أقوام، ويشقى بها أقوام)[1]، وهذا من لطائف المعاني المتقابلة؛ لما يحمله السياق من الجمع بين المتنافرات؛ لإبراز أوجه المغايرة، والمفاضلة بين الحسن والقبح، والخير والشر، في المقابلة بين علامات أهل السعادة وأهل الشقاء.

ويندرج تحت باب تقابل المعاني المتقابلات القائمة على جمع المتناقضات والمتوافقات ولكن بغير ترتيب، ومن ذلك قوله: **(فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد)**[2]، خرجت من باب المقابلة؛ لعدم حصول الترتيب بين الطرفين المتناقضين، فلو قيل في الطرف الثاني: (والتوحيد أعدل العدل) لصحت المقابلة. وقوله: **(والمقصود أن الله سبحانه يحب أن يعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك)**[3]، تقابل، خرج من باب المقابلة؛ لعدم تحقق شرط الترتيب، فقابل (لتجتنب وتبغض) بـ(لتحب وتسلك) على غير الترتيب، ولو قيل: (لتسلك وتحب) لصحت المقابلة.

**

(١) المرجع السابق، ص٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص١١١.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٢.

المبحث الأول

منهج ابن قيم الجوزية في إيراد المقابلة، وبيان وظائفها الدلالية

إن لابن قيم الجوزية –كما يعلم– آثارًا البحث فيها ذو مسالك عدة، ألطفها وأجلها: البحث عن محاسن النظم من بيان، ومعانٍ، وبديع، وكيفية توظيفها في السياق توظيفًا دلاليًّا، جماليًّا، نفسيًّا، يُثري النص بفيض الدلالة، ويُثري النفس بفيض المعاني الإحسانية، وسيرتكز الحديث في هذا المبحث حول منهجه في المقابلة بين المعاني المتوافقة، فالبحث عن مناهج أهل العلم في تراثهم هو بحث عن عقول هؤلاء الأجلاء في استنطاق أفكارهم، وهذا يتطلب مزيد جهد، وإدمان نظر، وإمعان فكر؛ لمعرفة طرائق الجمع بين المتقابلات وكيفياته، ومدى اقتضاء المقام لها، وكيف نما هذا الأسلوب في (الفوائد) بصورة أكثر دقة وإحكامًا.

وعلى هذا، فإن لابن قيم الجوزية طرقًا منهجية في توظيف المقابلة، تمثلت في الآتي:

أولاً: يعد كتابه (الفوائد) بيانًا بلاغيًّا لإيضاح توجيهات العقيدة الإسلامية، والبلاغة ظهرت فيه ظهورًا كاشفًا في جوانب عدة، أهمها: بلاغة أسلوب المقابلة الذي أولاه عناية واهتمامًا، فجمع بين جملة من المتناقضات والمتوافقات في موضوعات شتى، منها: (الإيمان والكفر)، و(العذاب والنعيم)، و(الجنة والنار)، و(عالم الدنيا السلفي وعالم الآخرة العلوي)، و(الهداية والضلال)، و(الهلاك والنجاة)، و(الشقاء والسعادة)، و(الحسنة والسيئة)، و(عرش الرحمن وعرش الشيطان)، و(لمة الملك ولمة الشيطان)، وهذا يجعلنا نقول: إنه عني به، وبان في ثنايا كتابه (الفوائد) إبانة ظاهرة.

ثانيًا: منهج ابن قيم الجوزية في بيان المتقابلات من المتناقضات والمتوافقات منهج قائم على التأمل والتدبر لبيان القرآن الكريم، والحديث الشريف، وتبصر خطاباتهما؛ لأن عدم التبصر يحرم القلوب من فهم وتدبر خطابات التشريع الإسلامي.

ثالثًا: التزم ابن قيم الجوزية في إيراد المتناقضات والمتوافقات بما اصطلح عليه البلاغيون في مفهوم المقابلة، ومن حق المقابلة البليغة أن تخرج بسبك محكم البناء، وصورة بديعة التكوين، يقتضيهما السياق طبقًا لمقتضى الحال، وصحة المقابلة "أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو بمعان متوافقة، ثم بما يقابلها على الترتيب"(١)، وهذا مما يتضح في مناقشة شواهد هذا المبحث وتحليلها.

رابعًا: الإتيان بجملة من العبارات الدقيقة المستنبطة من المفهوم الاصطلاحي للمقابلة، وتلك الإشارات توقظ القارئ على أن هاهنا مقابلة لا بد من حسن تدبر أطرافها. وستتضح هذه العبارات في تحليل نصوص هذا المبحث.

خامسًا: التزم ابن قيم الجوزية في إيراد صور المقابلة وكيفيات ورودها في النظم بما ورد عند البلاغيين في قولهم: "وتبدأ المقابلة بطباقين، ثم تتصاعد إلى أن تبلغ إلى مقابلة ستة معان بستة معان أخرى، وهذا أقصى ما وصلت إليه المقابلة في كلامهم كما سنرى –عند ابن قيم الجوزية في كتابه (الفوائد) "(٢)، وهذه الصور والهيئات على خمسة أنماط، وهي:

النمط الأول: ما يختص بمقابلة اثنين باثنين، ومن الشواهد الدالة عليه، قوله: (والعالمين: الأكبر، وهو علم الآخرة، والأصغر، وهو علم الدنيا)(٣)، (كما ينعم الروح التي آمنت بعينها، ويعذب التي كفرت بعينها)(٤)، (راجع عن معاصي الله، مقبل على طاعة الله)(٥)، (اللذة تابعة للمحبة، تقوى بقوتها، وتضعف بضعفها)(٦)،

(١) علم البديع، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، بسيوني عبد الفتاح فيود، (مؤسسة المختار، ط٣، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م)، ص١٥٤.

(٢) السابق.

(٣) الفوائد، ص١٠.

(٤) المرجع السابق، ص١١.

(٥) المرجع السابق، ص٢٣.

(٦) المرجع السابق، ص٧٣.

(فإن المأثم يوجب خسارة الآخرة، والمغرم يوجب خسارة الدنيا)[١]، (يعطيه ليشكره، ويمنعه ليفتقر إليه)[٢]، (أضعف توحيدًا، وأعظم شركًا)[٣]، (وكل علم لا يضر الجهل به، فإنه لا ينفع العلم به)[٤]، (وكذلك يكره المرء لوصف من أوصافها وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويحب المرء لوصف من أوصافها وله في إمساكها شر كثير لا يعرف)[٥]، (فكل أحد مطبوع على ألا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة)[٦]، (رجاء زيادة، أو خوف نقصان)[٧]، (يقوى جنده، ويضعف جند العدو)[٨]، (ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي)[٩]، (فمن زرع خيرًا فيوشك أن يحصد رغبة، فمن زرع شرًّا فيوشك أن يحصد ندامة)[١٠]، (صغر الدنيا، وكبر الآخرة)[١١]، (شكر الشكور، وكفر الكفور)[١٢]، (ولعمر الله، العدو العاقل أقل ضررًا من الصديق الجاهل)[١٣]، (ومصير أهل السعادة إلى الجنة، وأهل الشقاء إلى النار)[١٤]، (إذا أهلك أعداءه،

---

(١) المرجع السابق، ص٨١.
(٢) المرجع السابق، ص١١١.
(٣) المرجع السابق، ص١١٥.
(٤) المرجع السابق، ص١٢٥.
(٥) المرجع السابق، ص١٢٩.
(٦) المرجع السابق، ص١٥٥.
(٧) المرجع السابق، ص١٥٨.
(٨) المرجع السابق، ص١٦٠.
(٩) المرجع السابق، ص١٦١.
(١٠) المرجع السابق، ص١٩٩.
(١١) المرجع السابق، ص٢٠٨.
(١٢) المرجع السابق، ص٢١٣.
(١٣) المرجع السابق، ص٢٢٠.
(١٤) السابق.

أنجى أولياءه)[1]، (فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت)[2]، (يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها)[3]، (إظهار الموافقة، وإبطال المخالفة)[4]، وغيره كثير.

وهذا النمط من التقابل بسيط في تركيبه؛ إذ يقوم بين متقابلين متناظرين في الطرف الأول، ويقابلهما على الترتيب بمتقابلين متناظرين في الطرف الثاني، وغايته الأساسية إظهار التباعد والتباين بين طرفي القول، إما ترغيبًا، وتحفيزًا، وتحريضًا، وحثًّا على الخير، والنفع في جميع الأمور، وأما ترهيبًا، وتهديدًا، وتثبيطًا، وردعًا عن الشر، والضر في جميع الأمور.

والمقابلة في هذه المواطن مما اعتاد الفكر على معانيها في سياقات التوجيه، والنصح، والإرشاد، وقد اقترنت بحسن البيان، وحسن الإيجاز؛ فأتت منسوجة محبرة، غلب عليها الدقة في النظم، والكثافة في المعاني، ومن ذلك: **(وهو سبحانه يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، ويبغض القبيح من الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، فيبغض القبيح وأهله، ويحب الجمال وأهله)**[5]، فأظهرت مقدار التباين الشاسع بين الفريقين، فريق تمثل الجمال في ظاهره وباطنه وفي مطلق أحواله، وهذا يحبه الله، لقول الرسول- صلى الله عليه وسلم: «إن الله جميل يحب الجمال»[6]، وفريق تمثل القبح في ظاهره وباطنه ومطلق أحوله، فالله يبغضه، قياسًا على قول الرسول- صلى الله عليه وسلم: «جميل يحب الجمال»،

(١) المرجع السابق، ص٢٢٢.
(٢) السابق.
(٣) المرجع السابق، ص٢٧٤.
(٤) المرجع السابق، ص٢٨٥.
(٥) المرجع السابق، ص٢٥٠.
(٦) صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: أحمد بن رفعت بن عثمان حلمي القره حصاري، ومحمد عزت بن عثمان أبو ليوي، وأبو نعمة الله محمد شكري بن حسن الأنقروي، (دار الطباعة العامرة، تركيا، ١٣٣٤هـ)، (باب: تحريم الكبر وبيانه) رقم الحديث (٩١)، ٩٣/١.

«طيب لا يقبل إلا طيبًا»[١]، فالإتيان بالأدلة والبراهين يحقق قوة الإقناع الصارفة للعبد عن القبح والابتذال في جميع الأقوال والأفعال ومطلق الأحوال.

ومما منح النظم دقة وبيانًا: دلالة الفعل المضارع (يحب، ويبغض)؛ حيث الاستمرار المطلق، والتجديد المتكرر لصور الحب والبغض على الدوام، ثم مجيء التعريف بالألف واللام في (الجمال، القبيح، الأقوال، الأفعال، اللباس، الهيئة)، ثم حسن التقسيم؛ حيث شمل جميع الأحوال التي يمكن أن يكون عليها العباد، ثم التكرار في (يحب الجمال، يبغض القبيح، فيبغض القبيح، ويحب الجمال)؛ لمزيد التأكيد، والتنبيه، وقد خلق توازنًا يشوق النفس ويجعلها أكثر قبولًا لمظاهر الجمال، وأكثر بعدًا عن مظاهر القبح، وقد عبر عن الكره بالبغض؛ رغبة في التنفير، والإعراض.

النمط الثاني: ما يختص بمقابلة ثلاثة بثلاثة، ومن الشواهد الدالة عليه قوله: (فإن غرست شجرة الإيمان والتقوى أورثت حلاوة الأبد، وإن غرست شجرة الجهل والهوى فكل الثمر مر)[٢]، (فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها)[٣]، (سافرت في طلب الدنيا وهي زائلة، وقعدت عن السفر إلى الآخرة وهي راحلة)[٤]، (إذا رأيت الرجل يشتري الخسيس بالنفيس، ويبيع العظيم بالحقير، فاعلم بأنه سفيه)[٥]، (وتفيد قوة الإيمان والإرادة الحب للحق، وقوة البغض الكراهة للباطل)[٦]، (فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصًا له فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيرًا له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه

(١) صحيح مسلم، (باب قبول الصدقة من الكسب الطيب)، رقم الحديث (١٠١٥)، ٧٠٣/٢.
(٢) الفوائد، ص٥١.
(٣) المرجع السابق، ص٥١.
(٤) المرجع السابق، ص٩١.
(٥) السابق.
(٦) المرجع السابق، ص١٢١.

من محبوب شر له)[١]، (خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر)[٢]، (الهدى والرحمة وتوابعهما من الفضل والإنعام كله من صفة العطاء، والإضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع)[٣]، (من أعطي خيرًا فالله أعطاه، ومن وقي شرًّا فالله وقاه)[٤]، (فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي، وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية)[٥]، (درهم اكتسب بطاعة الله، وأخرج في حق الله، فذاك خير الدراهم، ودرهم اكتسب بمعصية الله، وأخرج في معصية الله، فذاك شر الدراهم)[٦]، (فالحب الذي يلقيه الملك، إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، والحب الذي يلقيه الشيطان، إيعاد بالشر، وتكذيب بالوعد)[٧]، (وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقرًا دون الله، والعز ذلًّا دونه، والذل عزًّا معه، والنعيم عذابًا دونه، والعذاب نعيمًا معه)[٨]، (فإذا فكّر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخستها وفنائها؛ أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا)[٩]، (فلذة الآخرة أعظم وأدوم، ولذة الدنيا أصغر وأقصر)[١٠]، (فإن رضي نال الرضا، وإن سخط فحظه السخط)[١١]، وغيرها من أوجه التقابل بين المعاني.

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٣٤.
(٣) المرجع السابق، ص١٨٦.
(٤) المرجع السابق، ص٢٠٠.
(٥) المرجع السابق، ص٢٣٠.
(٦) المرجع السابق، ص٢٣٣.
(٧) المرجع السابق، ص٢٤٠.
(٨) المرجع السابق، ص٢٦٥.
(٩) المرجع السابق، ص٢٦٨.
(١٠) المرجع السابق، ص٢٧٢.
(١١) المرجع السابق، ص٢٧٤.

وهذا النمط من الجمع بين المتقابلات (المتناقضة أو المتوافقة) انحصر في مقابلة ثلاثة معانٍ في الطرف الأول بثلاثة معانٍ في الطرف الثاني، والصور فيه أكثر تماسكًا، وترابطًا، والتحامًا في بيان المراد، وأقدر على تحريك نفوس المتلقين لاستقبال التوجيهات التشريعية، والتعليمات التربوية، بحسب ما يقتضيه السياق من تأكيد وإظهار لها، وليعلم المتلقي أن الغاية من هذا الجمع، والربط، والتشابك ليس اصطناعًا لجلب التحسين والتزين، وإنما لغايات ومقاصد عِظام، يُثريها السياق، ومن ذلك ما جاء سياق التنبيه على أن مخالفة الأمر أعظم من عمل المنهي عنه، يقول: "**المنهيات شرور، وتفضي إلى شرور، والمأمورات خير، وتفضي إِلَى الْخيرَات ... وسر هَذِه الْوُجُوه أَن الْمَأْمُور محبوبه، والمنهي مكروهه، وَوُقُوع محبوبه أحب إِلَيْهِ من فَوَات مكروهه، وفوات محبوبه أكره إِلَيْهِ من وُقُوع مكروهه، وَالله أعلم**"[1]، والتقابل جاء في ثلاثة مواضع:

الأول: قابل فيه ثلاثة بثلاثة: "المنهيات شرور، وتفضي إلى شرور، والمأمورات خير، وتفضي إِلَى الخيرات"، فـ(المنهيات) يقابلها (المأمورات)، و(الشر) يقابله (الخير)، و(الشرور) يقابلها (الخيرات). **والثاني: قابل فيه اثنين باثنين:** (المأمور محبوبه)، و(المنهي مكروهه). **والثالث: قابل فيه ثلاثة بثلاثة:** (وقوع محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه) يقابلها (فوات محبوبه أكره إليه من وقوع مكروهه)، وجميعها على الترتيب وبالتضاد بين المعاني، وقد سلمت من التكلف، وبرئت من التعقيد، والمعنى هو الذي ساقه نحوه[2]. ولا شك، أن هذه المتقابلات المتناظرة تعكس عمق الفكر الديني عند ابن قيم الجوزية، ذلك الفكر

(١) المرجع السابق، ص١٧٣، ١٧٤.

(٢) ينظر: أسرار البلاغة، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، قرأه وعلق عليه: أبو فهر، محمود محمد شاكر، (دار المدني، جدة، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩١م)، ص١١.

الذي يريد إظهاره وإيضاحه للمتلقي بصورة أكثر تركيزًا على المراد، وهو تصحيح الفكر الفاسد من خلال بناء الأسس السليمة للتشريع الإسلامي.

النمط الثالث: ما يختص بمقابلة أربعة بأربعة، ومن الشواهد الدالة عليه قوله: (من وطن قلبه عند ربه سكن واستراح، ومن أرسله في الناس اضطرب واشتد به القلق)[١]، (للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها، ثلاثة سافلة، وثلاثة عالية، فالسافلة: دنيا تتزين له، ونفس تحدثه، وعدو يوسوس له، فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لا تزال تجول فبها، والثلاثة العالية: علم يتبين له، وعقل يرشده، وإله يعبده، والقلوب جوالة في هذه المواطن)[٢]، (إن ذنب ارتكاب النهي مصدره في الغالب الشهوة والحاجة، وذنب ترك الأمر مصدره في الغالب الكبر والعزة)[٣]، (أن فعل ما يحبه والإعانة عليه وجزاءه وما يترتب عليه من المدح والثناء من رحمته، وفعل ما يكرهه وجزاءه وما يترتب عليه من الذم والألم والعقاب من غضبه)[٤]، (فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته وطغت نفسه اتصفت بكل خلق رذيل)[٥]، (وأن الله بقسطه وحلمه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)[٦]، (وأنفع الفكر: الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابه، فهذه أربعة أفكار هي أجلّ الأفكار، ويليها أربعة: فكر في مصالح الدنيا، وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا، وطرق الاحتراز منها)[٧].

---

(١) الفوائد، ص١٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٦١.

(٤) المرجع السابق، ص١٧٠.

(٥) المرجع السابق، ص١٩٨.

(٦) السابق.

(٧) المرجع السابق، ص٢٦٨.

والناظر في أوجه المقابلة يلحظ أنها جاءت في صور متنوعة متعددة في معانيها ودلالتها، ومن ذلك قوله في سياق ذكر الحكم والمواعظ: "**من تطاول تعظمًا حطه الله، ومن تواضع تخشعًا رفعه الله، وإن للملك لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فإذا رأيتم ذلك فاحمدوا، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق، فإذا رأيتم ذلك فتعوذوا بالله**"(١)، والتقابل جاء في موضعين:

الأول: قابل فيه ثلاثة بثلاثة، فـ(التطاول، يقابله: التواضع)، و(التعاظم، يقابله: التخشع)، و(حطه، يقابل: رفعه)، وفي التقابل إعلام للبشرية بأن التطاول معصية كبيرة، يؤدي إلى الكفر؛ تحذيرًا منه؛ لأن صاحبه لم يقدر الله حق قدره، وأن التواضع عبادة عظيمة، يؤدي إلى الإيمان؛ ترغيبًا فيه؛ لأن صاحبه عرف شرع الله وتمثله. ولما كانت النفوس تميل نحو الاختيال، والتكبر، والتطاول، اقتضى السياق مجيء الموضع **الثاني: فقابل فيه أربعة بأربعة،** فـ(لمة الملك مقابل للمة الشيطان)، و(إيعاد بالخير مقابل لإيعاد بالشر)، و(تصديق بالحق مقابل لتكذيب بالحق)، و(احمدوا مقابل لتعوذوا)؛ تخويفًا وتهويلا من فعل الشيطان في تلك النفوس.

النمط الرابع: ما يختص بمقابلة خمسة بخمسة، ومن الشواهد الدالة عليه قوله: (يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض ويمقت ذلك، ويحب العدل والإحسان والإصلاح في الأرض ويحب فاعل ذلك)(٢).

وقوله: (الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي)(٣)، والمقابلة بين المعاني أظهر المفارقة بين معنيين متناقضين، حصل

(١) المرجع السابق، ص٢٠١.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٧.

بينهما لون من التقابل، فـ(الجنة تقابلها النار)، و(ترضى يقابلها تندفع)، و(منك يقابلها عنك)، و(أداء يقابلها ترك)، و(الفرائض يقابلها المعاصي)، وفي هذا النص توجيه إيماني عليّ في معناه، يسعى إلى حثّ النفوس إلى حسن العمل، وحسن الاتباع، وحسن الانقياد؛ ترغيبًا في الجنة، وهذا ما أبرزه التقابل بين طرفي الصورة، فالأولى تقوي الثانية وتؤكد معناها؛ لأن أداء الفرائض –الطاعات– وترك المعاصي في المنهج الإسلامي يتطلب العزم الصادق على النهوض بتكاليف الشرع الذي ينظم الحياة كلها.

ومن دقائق النظم: الجمع في (الفرائض) دلالة على التعظيم، والألف واللام دلالة على الإحاطة والشمول لجميع أنواع العبادات، ودلالة الفعل المضارع (ترضى، تندفع) على استحضار صورة الرضا التام؛ حيث دوام العمل والالتزام، واستمرار الدفع والمجاهدة في محاربة المعاصي بجميع أنواعها، فهي منشأ الشرور كلها.

النمط الخامس: ما يختص بمقابلة ستة بستة، ومن الشواهد الدالة عليه قوله: (من اشتغل بالله عن نفسه كفاه الله مؤونة نفسه، ومن اشتغل بالله عن الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن اشتغل بنفسه عن الله وَكَلَهُ الله إلى نفسه، ومن اشتغل بالناس عن الله وَكَلَهُ الله إليهم)[1].

فإن قوله: (من اشتغل بالله، يقابلها: من اشتغل بنفسه)، وقوله (عن نفسه، يقابلها: عن الله)، وقوله: (كفاه الله مؤونة نفسه، يقابلها: وَكَلَهُ الله إلى نفسه)، وقوله: (من اشتغل بالله، يقابلها: من اشتغل بالناس)، وقوله: (عن الناس، يقابلها: عن الله)، وقوله: (كفاه الله مؤونة الناس، يقابلها: وَكَلَهُ الله إليهم)، والمقابلة صورت حال الناس تجاه الإيمان، **فالأول:** فريق محسن لنفسه، عرف حقيقة الإيمان، حيث "التصديق به عقدًا، والإقرار به نطقًا، والانقياد له محبة وخضوعًا،

(١) المرجع السابق، ص١٤٧.

والعمل به باطنًا وظاهرًا"[1]، فلا شاغل لهم عن الله؛ لذا لم يحصل لهم ضرر البتة، بل كفاهم الله مؤونة أنفسهم، ومؤونة الناس معًا. **والثاني:** فريق مسيء لنفسه، جعل الإيمان مجرد علم، لم يقارنه عمل، (فلم يعرفوا حقيقة الإيمان، ولا قاموا به، ولا قام بهم)[2]، وإنما انشغلوا بأنفسهم وبالناس عنه، فحصل لهم الضرر العظيم؛ إذ وكل أمرهم لأنفسهم وللناس؛ ترغيبًا في التفرغ للعبادة ظاهرًا وباطنًا، وترهيبًا من الموانع الصارفة عن العبادة، ولا شك، فالتقابل بين حال الفريقين حقق الإقناع، والوعظ، والتنبيه بطريقة أكثر ثباتًا، وأعمق تأثيرًا، ويستدل على هذا بحديث رواه الترمذي قائلًا: حدثنا علي بن خشرم، قال: أخبرنا عيسى بن يونس، عن عمران بن زائدة بن نشيط، عن أبيه، عن أبي خالد الوالي، عن أبي هريرة، عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: «**إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت يديك شغلًا ولم أسد فقرك**»[3].

سادسًا: أشار ابن قيم الجوزية في بعض المواضع إلى ضرورة مشاركة القارئ في إتمام أوجه المعاني المتقابلة، وهذه دعوة إلى إعمال العقل لإدراك ما في الصور من مزايا وأسرار، فعلى المتلقي تأمل وتدبر طرفي المقابلة، وعلاقة ارتباط بعضهما ببعض، وأن يولي تلك الصور والأحداث والمشاهد فضل عناية واهتمام لإتمام ما حذف من أركانها؛ وما ذلك إلا رغبة في زيادة التنبيه على الأمور المحذوفة، ومن الشواهد على ذلك قوله:

---

(١) الفوائد، ص١٤٧.

(٢) السابق.

(٣) سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وآخرين، (شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م)، رقم الحديث (٢٤٦٦)، ٦٤٢/٤.

- **(وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين، والطيبين للطيبات، وعكس ذلك)**[1].

فقد استقر في الأذهان ذلك التوجيه الإسلامي الحنيف؛ بحيث يسهل على المتلقي إكمال صورة التقابل التي تعكس الرؤية الدينية التي يقتضي السياق إيضاحها، فإن عدم إتمامها والاكتفاء بقوله: (وعكس ذلك)؛ مما يبث في النفس شحنات شعورية تدعو إلى التيقظ، والتنبيه، فـ"كل شكل ينضم إلى شكله، ويفعل أفعال مثله"[2]، فـ(فالطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات، والخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات)، والنفس الطيبة تمتزج بالنفس الطيبة، والنفس الخبيثة تلتئم بالنفس الخبيثة[3]، فالمقابلة أحدثت نوعًا من الاستجابة القوية لدى المتلقي؛ عن طريق تشويقه لإكمال المعنى وإتمامه؛ وعن طريق تنبيهه لما ينبغي عليه تجاه التعليمات الشرعية؛ وعن طريق إقناعه بما في السياق من براهين تؤكد هيبة (المواعظ، والزواجر)، فالحسن المطلق للأرواح الطيبة، والقبح المطلق للأرواح الخبيثة، وقد استدل عليهما بما نص عليه القرآن الكريم في قوله: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ (النور: ٢٦).

- وقوله: **(إذا أراد الله بعبده خيرًا جعله معترفًا بذنبه، ممسكًا عن ذنب غيره، جوادًا بما عنده، زاهدًا فيما عند غيره، محتملًا لأذى غيره، وإن أراد به شرًّا عكس ذلك عليه)**[4].

---

(١) الفوائد، ص٧١.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي،(دار الكتاب الإسلامي، القاهرة)، ١٣/٢٤٤.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن، إبراهيم حسين الشاربي، سيد قطب، (دار الشروق، بيروت– لبنان، ط١٧، ١٤١٢هـ)، ٢/٢٥٠٥.

(٤) الفوائد، ص١٣٦.

فالذهن المتيقظ يعمل جاهدًا على استحضار مكونات الصورة الثانية – المحذوفة، من خلال تبصر وفهم مكونات الصورة الأولى –المذكورة؛ وعليه، تكون المقابلة مقابلة ستة مذكورة بستة محذوفة؛ **فالأول** في (إذا أراد الله بعبده خيرًا، يقابلها: وإن أراد به شرًّا)، و**الثاني** في (جعله معترفًا بذنبه، يقابلها: جعله منكرًا لذنبه)، و**الثالث** في (ممسكًا عن ذنب غيره، يقابلها: مسرفًا في ذنب غيره)، و**الرابع** في (جوادًا بما عنده، يقابلها: بخيلًا بما عنده)، و**الخامس** في (زاهدًا فيما عند غيره، يقابلها: راغبًا فيما عند غيره)، و**السادس** في (محتملًا لأذى غيره، يقابلها: ضجرًا لأذى غيره). فالصورة الأولى بمكوناتها تصف حال العبد المؤمن **(جعله معترفًا بذنبه، ممسكًا عن ذنب غيره، جوادًا بما عنده، زاهدًا فيما عند غيره، محتملًا لأذى غيره)**، ولا ريب، فإن للمؤمنين نعمًا، ومن أعظمها النعم التي ذُكرت وتمثلت في قوله: (خيرًا) بصيغة التنكير؛ دلالة على التعظيم، والصورة الثانية بمكوناتها تصف حال العبد الكافر **(جعله منكرًا لذنبه، مسرفًا في ذنب غيره، بخيلًا بما عنده، راغبًا فيما عند غيره، ضجرًا لأذى غيره)**، ولا ريب، فإن عليهم نقمًا، ومن أشدها بشاعة النقم التي ذُكرت وتمثلت في قوله: (شرًّا) بصيغة التنكير؛ دلالة على التحقير، والتقابل له دور فعال في نشر الدعوة إلى إصلاح حال العباد، وإرشادهم إلى الاحتذاء بالنموذج الأول؛ ترغيبًا، وحضًّا، وتجنب الميل والاحتذاء بالنموذج الثاني؛ تحذيرًا، وإنذارًا.

– **وقوله: (فأعمال البر تثمر الهدى، وَكلما ازْدَادَ مِنْهَا ازْدَادَ هدى، وأعمال الفُجُور بالضد، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها بالهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء)**[1].

وهذا النمط من الأساليب أقدر على تحقيق المراد؛ لما له من أثر بالغ في الإصلاح والإرشاد؛ لكونه يطلب من المتلقي أن يعطي المعاني المتقابلات حقها

(١) المرجع السابق، ص١٧٦.

من التأمل والتدبر، وعليه، فالجزء الأول –مذكور، وهو: (أعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازداد منها ازداد هدى)، وهذا الجزء يدل على مقابله –المحذوف– دلالة مباشرة، وهو: (أعمال الفجور تنتج الضلال، وكلما ازداد منها ازداد ضلالًا)؛ ترغيبًا في البر، وما يترتب عليه من الهدى، وترهيبًا من الفجور، وما يترتب عليه من الضلال.

وإلى جانب هذه الصورة التركيبية القائمة على التضاد جاءت صورة تركيبية أخرى قائمة على التضاد، الجزء الأول منها: (يحب أعمال البر، فيجازي عليها بالهدى والفلاح)، ومقابلها: (يبغض أعمال الفجور، ويجازي عليها بالضلال والشقاء)؛ حثًّا على جميع الأفعال الصالحة، فهي نتيجة لأعمال البر، وسبب في زيادة الإيمان، وتحذيرًا من جميع الأفعال الفاسدة، فهي نتيجة لأعمال الفجور، وسبب في زيادة الكفر، والغاية التي عليها مدار الأمر في هذا الباب أن "الهداية تجر الهداية، والضلال يجر الضلال"(١).

– وقوله: **(ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضًا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس في التوحيد، والإيمان، والإسلام، وأبغض الناس في ضده، عالمين بالسبيل على التفصيل)**(٢).

والمقابلة جاءت في جملتين تركيبيتين، ذات نمط دلالي تشكّل في نظام من التصوير متلاحم الأجزاء، مترابط المعنى، فالجملة الأولى قابل فيها بين معنيين: (الحيرة، يقابلها: الهدى)، و(العمى، يقابله: البصائر)، فاتضح بالأضداد جمال المتقابلات، وهذا التقابل أحدث تقابلًا دلاليًّا آخر، يقوي المعنى ويؤكده، ويملأ

(١) الفوائد، ص/١٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٩.

القلوب مهابة من مراتع الكفر، والشرك، والضلال، فقابل (ازدادوا رغبة ومحبة) بـ(نفرة وبغضًا)، وقابل (فيما انتقلوا إليه) بـ(لما انتقلوا عنه)، وقابل (كانوا أحب الناس في التوحيد، والإيمان، والإسلام) بـ(أبغض الناس في ضده)؛ ثقة بأن السامع يدرك تلك الأضداد، وهي: (الشرك، والكفر، والإعراض).

سابعًا: الإتيان بالشواهد والأدلة مندمجة في طرفي المقابلة؛ مما يزيد في إقناع المتلقين، وإبطال ما يعتلج في نفوسهم بالحجج القاطعة، والبراهين النيرة، وهذا دليل على حسن الاختيار، وحسن التوظيف لتلك الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال الحكماء والبلغاء؛ فإنها تزيد من ظهور الأثر الدلالي للمقابلة، ومن الشواهد الدالة على ذلك:

- **من المواضع التي استدل فيها بالآيات القرآنية:** (فإنه يحب البر، ويحب أهل البر، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويبغض الفجور وأهله، فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور، فمن الأصل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢))[1]، (وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ (الأنفال: ٢٩)، ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل، فسر القرآن بهذا وبهذا)[2]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ (الزمر:٢٢)، فجمع بين الهدى والإنابة، وبين الضلال وقسوة القلب)[3].

ويقول في سياق ذكر الهدى والضلال: **(إنه سبحانه يجمع بين الهدى وانشراح الصَّدر والحياة الطيّبة، وبين الضلال وضيق الصَّدر والمعيشة والضنك،**

---

(١) الفوائد، ص١٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٨٥.

﴿ أَفَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (الأنعام:١٢٥))[١]، فقابل ثلاثة بثلاثة، جاءت على الترتيب: (الهدى) يقابله ضده: (الضلال)، و(انشراح الصدر) يقابله ضده: (ضيق الصدر)، و(الحياة الطيبة) يقابلها ضدها: (المعيشة الضنكة). وهذا النمط يثبت حقائق وتوجيهات سماوية بطريقة المفارقة بين حالين: حال أهل الهداية، وحال ما يصل إلى قلوبهم المنشرحة المتسعة من الإيمان والخير، فهم أهل للإيمان، وحال أهل الضلال، وحال قلوبهم الضيقة المنغلقة؛ إذ لا يصل إليها شيء من الإيمان والخير، فهم أهل الكفر، في سياق الجمع بين لما لأهل الهدى، وما لأهل الضلال؛ إشارة إلى أنه متى سلم الفريق الضال من الضلالة في الدنيا سلم من العذاب في الآخرة، ومتى تمكن الفريق المهتدي من الهداية في الدنيا فاز بالنعيم في الآخرة[٢].

- **من المواضع التي استدل فيها بأحاديث الرسول- صلى الله عليه وسلم،** قوله: (إن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المنهي، كما دل على ذلك النصوص، كقوله صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها»، وقوله: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟». قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذكر الله»، وقوله: «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»)[٣]. وقول ابن قيم في استدلاله بحديث الرسول الكريم: (وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك

(١) الفوائد، ص١٨٥.

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٥٩/٧. والتحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ)، ٣٣١/١٦.

(٣) الفوائد، ص١٦٢.

علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي- صلى الله عليه وسلم: إن مدحي زين، وذمي شين. فقال: «ذلك الله عز وجل»، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشينك ذمه)[١].

فالأحاديث المروية عن الرسول- صلى الله عليه وسلم- أسهمت بشكل فاعل في نماء المعنى الدلالي لصورة المقابلة، فقد جاءت تأكيدًا قاطعًا، وحجة ظاهرة على أن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المنهي، وقد ذكرت الأحاديث أعظم المأمورات (الصلاة)؛ تشريفًا وتعظيمًا، والاستدلال بهذا في سياق الجمع بين المتنافرات يُعد طريقًا هاديًا إلى الارتقاء في مراتب الطاعات الواجبة؛ ترغيبًا وترهيبًا يوجبان الجنة.

- **من المواضع التي استدل فيها بكلام البلغاء، قوله: (فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب، والإصرار عليها، والاستقلال منها، وقد قال يحيى بن معاذ: "طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها")**[٢]. وغاية ابن قيم الجوزية في هذا السياق أن يُبين إبانة لا مجال فيها للشك في أن ترك الذنوب أولًا؛ فهي أساس كل الفرائض الدالة على التوحيد، والعارف لا يأمر الناس بترك الدنيا؛ لأنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب[٣]، والاستدلال بقول يحيى بن معاذ القائم على الجمع بين المتقابلات المتضادة مما يقوي المعنى ويؤكده.

ثامنًا: اجتماع لونين من المقابلة وأكثر في موضع واحد، مع التعقيب عليهما بالشرح والتحليل، وهذه طريقة من طرق ابن قيم الجوزية في الجمع بين المتناقضات والمتوافقات في طرفي التقابل، تعين على معرفة الأسرار الناتجة عن البيان والإيضاح، ومن الشواهد الدالة على ذلك قوله:

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٥.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣١.
(٣) المرجع السابق، ص٢٣١.

- (**ألا وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، والصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإنه يقال للصادق: صدق وبر، ويقال للكاذب: كذب وفجر، وإن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- حدثنا أن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، ويكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**)[1]، وفي الاستدلال بهذا الحديث جملة من المقابلات، **الأولى:** ضمت ثلاثة بثلاثة على الترتيب، فـ(الكذب، يقابله: الصدق)، و(الفجور، يقابله: البر)، و(النار، يقابلها: الجنة). **والثانية:** ضمت ثلاثة بثلاثة على الترتيب، فـ(الصادق، يقابله: الكاذب)، و(صدق، يقابلها: كذب)، و(برّ، يقابلها: فجر). **والمقابلة:** ضمت اثنين باثنين على الترتيب، فـ(يصدق، يقابلها: يكذب) و(صديقًا، يقابلها: كذابًا). والمعنى الدلالي البلاغي من ورائها: الترغيب في الصدق والبر والجنة، والترهيب من الكذب والفجور والنار.

- (وأصل الضنك في اللغة: الضيق والشدة، وكل ما ضاق فهو ضنك، يقال: منزل ضنك، وعيش ضنك، فهذه المعيشة الضنك في مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة، فإن النفس **كلما وسعت** عليها ضيقت على القلب حتى يصير معيشة ضنكًا، **وكلما ضيقت** عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح، **فضنك المعيشة** في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة، **وسعة المعيشة في الدنيا** بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة، فآثر أحس المعيشتين، وأطيبهما، وأدومهما، **وأشق البدن** بنعيم الروح، **ولا تشق** الروح بنعيم البدن، فإن **نعيم الروح** وشقاءها أعظم وأدوم، **ونعيم البدن** وشقاؤه أقصر وأهون)[2]، وهذا نمط من القول ضم أربع صور للمقابلة، كل واحدة بطرفين متماسكين مترابطين، **المقابلة الأولى:** ضمت ثلاثة بثلاثة، (وسعت على النفس،

(١) الفوائد، ص٢٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣١.

يقابلها: ضيقت على النفس)، و(ضيقت على القلب، يقابلها: وسعت على القلب)، و(حتى يصير معيشة ضنكًا، يقابلها: حتى ينشرح وينفسح). **والمقابلة الثانية:** ضمت ثلاثة بثلاثة، (ضنك المعيشة في الدنيا، يقابلها: سعة المعيشة في الدنيا)، و(التقوى، يقابلها: الهوى)، (سعتها في البرزخ والآخرة، يقابلها: ضنكها في البرزخ والآخرة). **والمقابلة الثالثة:** ضمت ثلاثة بثلاثة، (أشق، يقابلها: لا تشق)، و(البدن، يقابلها: الروح)، و(نعيم الروح، يقابلها: نعيم البدن). **والمقابلة الرابعة:** ضمت ثلاثة بثلاثة، (نعيم الروح، يقابلها: نعيم البدن)، (أعظم، يقابلها: أقصر)، و(أدوم، يقابلها: أهون) بالموافقة بينهما، فكل جملة من الجمل حوت عددًا من المتقابلات؛ حثًّا على طلب المطالب العليا؛ لما يُوجبه من شرف المقصد، وشرف المطلب، وشرف الوصول إلى الله.

ويلحظ مما سبق: أن بيان ابن قيم الجوزية للمقابلة بيان بليغ، امتاز بروعة الفصاحة، وسداد المعاني، وعمق الدلالات، إلى جانب صقل الصور والمشاهد المتقابلة، والربط الجيد بين الأمور المتنافرة المتناقضة والأمور المتوافقة المتشابهة، وتجويد الصياغة الأسلوبية، ولزوم سجية الطباع؛ بحيث "تجعل الكلام أمكن في العقول، وأبعد من القلق، وأوضح للمراد، وأفضل عند ذوي التحصيل، وأسلم من التفاوت، وأكشف عن الأغراض، وأنصر للجهة التي تنحو نحو العقل، وأبعد عن التعمل الذي هو ضرب من الخداع"[1].

الوظائف الدلالية للمقابلة:

- اعتمد ابن قيم الجوزية على الذوق الفني، والحس البياني في تحقيق المعنى، بطريق الإقناع، والإمتاع، والوعظ، والإرشاد، ومن أجل هذا أتقن رسم الصور، والمواقف، والأحداث المتناقضة، والمتوافقة؛ لاستحضار بواعث الخير، من: الهداية، والراحة، والأنس الحاصلة لأهل الإيمان؛ ترغيبًا لتسلك، ولاستحضار

(١) أسرار البلاغة، ص٨.

مقابلاتها على النقيض، من: الضلال، والعناء، والوحشة الحاصلة لأهل الكفر؛ ترهيبًا لتجتنب.

وعلى هذا، فالمقابلة جاءت في صور وهيئات بيانية متعددة متنوعة، أفادت النظم حسنًا، وجمالًا، وأثارت في المتلقين قدرًا عاليًا من الانفعالات والاستجابات، فتارة ترغبه، وأخرى ترهبه، فإن "للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها، والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها، تحريكًا وإيلاعًا بالانفعال إلى مقتضى الكلام؛ لأن تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعًا من سنوح ذلك لها في شيء واحد. وكذلك حال القبح. وما كان أملك للنفس وأمكن منها فهو أشد تحريكًا لها. وكذلك أيضًا مثول الحسن إزاء القبيح، أو القبيح إزاء الحسن؛ مما يزيد غبطة بالواحد وتخليّا عن الآخر؛ لتبين بالمثول إزاء ضده. فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيبًا"(١).

- أن القيمة الحقيقة للمقابلة لا تنحصر في وضع الشيء في مواجهة ما يقابله، وإنما هي في الحقيقة فن يتطلب الإمعان، والاقتناع بخصوصيات الطرفين المتقابلين، "فإذا رأيت الكلام قد جمع بين المتناقضات، وأثار بينهما ضروبًا من الشغب، والمنابذة، والمجاذبة، رأيت الكلام يستثير في النفس قواها المتضاربة، ويستفز هواجسها المتباينة، ومن شأن هذا أن يستثير صبابة، ونشوة، ويقظة، وهزة، وتشوقًا؛ لأنه ضرب أوتارها الحية الحساسة"(٢).

- تُعدّ المقابلة نمطًا أسلوبيًّا دلاليًّا يشكل أداة فاعلة في تكوين المعنى، ونسخ التراكيب، فلا يقف حسنها عند التلوين الصوتي الذي يحدث بين المعاني، بل يتعداه إلى قيم معنوية تدعو إلى عدة أغراض بلاغية، منها:

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، (دار الكتب الشرقية)، ص٤٤-٤٥.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري، دراسة في سمت الكلام الأول، ص٤٤٧.

١. إغراء المتلقي، وإثارته نحو الجمال المعنوي واللفظي.
٢. تأكيد المعاني، وإيضاحها، وإخراجها في صورة منتظمة مترابطة تتصل أجزاؤها اتصالًا وثيقًا؛ مما يثري الجانبين: الفني، والنفسي لدى المتلقي.
٣. تكسب المقابلة النظم حسنًا؛ حيث الترابط والإحكام بين المعاني، والتناسب والتوازن بين الألفاظ، وهذا يحقق في النظم بنى إيقاعية معنوية تولد نسقًا أسلوبيًّا دلاليًّا، بعيدًا عن التكلف، والتعقيد، والغموض.
٤. تُعدّ المقابلة من أساليب التشويق، فهي تمنح النظم الإيضاح والبيان، والإبلاغ والتبليغ، والتأثر والتأثير.

**

المبحث الثاني

جماليات المقابلة في موضوعات الإيمان:

من حيث السياق، والصورة، وأثرها في المتلقي

يُعد التقابل الدلالي بين لفظتي (الإيمان) ونظيره (الكفر) من الأساليب الدالة على صحة العقيدة؛ حيث الخلوص والانقياد، أو فسادها؛ حيث الجحود والاستكبار، فاللفظان يحملان صورًا من المفارقة، والمخالفة، والمناقضة، والتباين في السلوكيات الدينية، والتوجيهات الفكرية، والمؤمن والكافر نموذجان متعارضان في المحتوى الدلالي لكلٍّ منهما، فالإيمان من قولهم: "أَمِنْتُ الرَّجُلَ أَمْنًا وَأَمَنَةً وَأَمَانًا، وَآمَنَنِي يُؤْمِنُنِي إِيمَانًا"(١)، وهو ضد الكفر، ومعناه: التصديق، والتصديق ضده التكذيب، يقال: آمن به قوم، وكذب به قوم(٢). والكفر من قولهم: "كَفَرَ باللَّه يَكْفُر كُفْرًا وكُفُورًا وكُفْرانًا"(٣)، وهو ضد الإيمان، ومعناه: الستر والتغطية(٤) ... ففي هذا المبحث نتتبع أسلوب المقابلة بين لفظتي الإيمان والكفر في كتاب (الفوائد)؛ لما يحويه هذا الكتاب من منهج تثقيفي توجيهي، أساسه الإبانة عن ثوابت الدين وأصول التشريع، فمن صور المقابلة ما يأتي:

النص الأول، يقول ابن قيم الجوزية في ذكر القلب الحي الواعي: "**الأول: حال من رأى بعينه ما دعي إليه وأخبر به. والثاني: حال من علم صدق المخبر وتيقنه، وقال: يكفيني خبره. فهو في مقام الإيمان، والأول في مقام الإحسان، هذا قد وصل إلى علم اليقين، وترقى قلبه منه إلى منزلة اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر، ودخل به في الإسلام، وعين اليقين**

---

(١) مقاييس اللغة، ١٣٤/١.

(٢) ينظر: لسان العرب، ٢١/١٣.

(٣) المرجع السابق، ١٤٤/٥.

(٤) ينظر: مقاييس اللغة، ١٩١/٥.

نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة. والحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين، وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار، وفي الدنيا بالبصائر، فهو عين يقين في المرتبتين"[1].

فالنص يُبين عن حال أصحاب القلوب الحية الواعية في الانتفاع والتأثر بمعاني القرآن، فهي في مقامين عليين، **الأول:** مقام الإحسان، وهو مقام يترقى القلب فيه إلى منزلة عين اليقين، **والثاني:** مقام الإيمان، وهو مقام يقتضي حصول التصديق الجازم الذي يخرجهم من الكفر تطهيرًا، ويدخلهم في الإسلام تكريمًا، فبنى المعنى على المقابلة، وجعل (الخروج مقابلًا للدخول)، و(الكفر مقابلًا للإسلام)، ووراء هذا اللون من التقابل مسوغات بلاغية تتمثل في: تحذير صاحب القلب الميت الذي لا ينتفع بشيء، فعليه تجنب الموانع التي تمنع من حصول الانتفاع، وعدم الإقبال، كـ(سهو القلب، وذهوله)؛ فهو ذهولٌ يوصله إلى النار، وتنبيه لصاحب القلب الحي إلى مداومة النظر والاعتبار؛ لكونه طريقًا يوصله إلى الجنة.

ولما كان الإصغاء هو الشرط لحصول الانتفاع في الدنيا والآخرة، جعل **(ما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار، وفي الدنيا بالبصائر)**؛ ليصور بالمقابلة صورتين لمن امتثل حسن الإصغاء، وأفرغ سمعه وقلبه للقرآن يتأمله ويعقل معانيه، فحينئذ يعلم يقينًا أنه حق. فالصورة الأولى: أن الأمور الغيبية تدرك في الآخرة مشاهدة بالأبصار، وفي الدنيا تدرك بالتأمل والتفكر والتعقل فيما جاء به الرسول من أمور الغيب. فـ(الآخرة، ويقابلها: الدنيا)، و(الأبصار، ويقابلها: البصائر)، والجمع بينهما يُعد ترجمة حية تربي في المرء قيمًا ومبادئ، منها: سلامة العقل من الكفر، واليقظة من الغفلة، والتبصر من الإغماء، والتدبر من التسرع في فقه أمور التشريع الإسلامي، ومن دقائق المعاني:

---

(١) الفوائد، ص٩، ١٠.

- حسن اختيار الألفاظ المعبرة عن المعنى، فجاء بصورة الماضي في (رأى، عَلِمَ، وصل، ترقى، خرج، دخل، أخبرت)؛ دلالة على الثبوت المطلق الذي لا يخالطه زيغ، ولا ميل، ولا التواء، وإنما تعقل، واستقامة، وانتظام.

- **بلاغة التقسيم**، في قوله: (فعين اليقين نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة)؛ تشويقًا للمتلقي؛ حيث الإجمال أولًا؛ ليحث في النفوس المتيقظة مزيدًا من الترقب والتطلع لمعرفة المراد، فيأتي البيان والإيضاح ويستقر في النفوس أفضل استقراء، استقراء علم، وعمل، وتمكن.

- **حسن التضاد** في الجمع بين (الدنيا، والآخرة)؛ ففي لفظ (الدنيا) دنو ونزول في المراتب؛ ولهذا المعنى لزمتها العاجلة المقابلة للفظ (الآخرة)، "ففي الدنيا نزول قدر وتعجل، وفي الآخرة علو قدر وتأخر"(١).

- جمال **مراعاة النظير** في الجمع بين المتناسبات، ففي قوله: (القلب، والعين)، و(الإيمان، والإحسان، والإسلام)، و(التصديق، واليقين) تناسب قائم على الائتلاف، والتوفيق، والمؤاخاة بين المعاني.

- حسن **اللف والنشر** على طريقة الترتيب؛ حيث أجمل أولًا (أنواع اليقين: يقين في الدنيا، ويقين في الآخرة)، ثم جاء النشر مرتبًا على طريقة اللف، فذكر ما يختص به يقين الدنيا، ثم ما يختص به يقين الآخرة، من غير تعيين، وهذا من البلاغة والبيان؛ لما يحقق في النظم من: توكيد، وإقناع، وإثارة، وتنبيه، وتشويق، واستثارة لمعرفة ما يحمله النشر من دلالات، فجاء النشر والنفوس متطلعة مترقبة له(٢).

- جمال النغم الموسيقي في حسن توظيف **السجع**، في قوله: (رأى بعينه، أخبر به، تيقنه)، وأيضًا في قوله: (الإيمان، الإحسان، اليقين، نوعان، المرتبتين)،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٤/٢.

(٢) علم البديع، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، ص١٧٧.

وأيضًا في قوله: (الأبصار، البصائر)، فقد تواطأت الفواصل على حروف واحدة، حققت في النظم نغمة مؤثرة تطرب لها الآذان، وتميل إليها النفوس، فيحصل تمكن المعاني في الذهن بصورة أكثر بيانًا للمعنى، وفهمًا، واستجابة.

النص الثاني: يقول ابن قيم الجوزية في سياق التنبيه على أهمية امتثال الاستجابة لله ولرسوله: (**وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ (الأنفال: ٢٤)**، المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته، وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين)[١].

وفي سياق الأمر الإلهي (استجيبوا) -في أول الآية- تعلو نبرة الترغيب والترهيب؛ أملًا في حصول الإقبال وتجنب الإعراض، فإن الله "بشمول علمه، وكمال قدرته، يحول بين المرء وقلبه، فيرده إلى ما علم منه، فيصير فيما كشفه الحال كافرًا معاندًا بعد أن كان في ظاهر الحال مؤمنًا مستسلمًا، فيكون ممن علم الله أنه لا خير فيه، وقسره على الإجابة فلم يستمر عليها، ويرد الكافر بعد عناده إلى الإيمان بغاية ما يرى من سهولة قيادة"[٢]، فحركة النفس الشعورية وانفعالاتها النفسية في هذا السياق تزداد خوفًا، وتيقظًا، وحذرًا، واحتياطًا، من الخروج عن نهج التشريع الإسلامي في مخالفة الأوامر والنواهي، وتزداد حدة الانفعال من خلال تأمل طريقة بناء الكلام على أوجه متقابلة متناقضة متباينة أشد ما يكون التناقض والتباين في خصوصيات كل طرف من أطرافها، فالصورة الأولى لأسلوب المقابلة: (أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان)، فجعل ابن قيم الجوزية (المؤمن) بإزاء (الكافر)، وجعل (الكفر) بإزاء (الإيمان)، والصورة الثانية لأسلوب المقابلة: (ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين

---

(١) الفوائد، ص١٢٣.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٥٣/٨.

أهل معصيته وبين طاعته)، فجعل (أهل طاعته) بإزاء (أهل معصيته)، وجعل (معصيته) بإزاء (طاعته)، فبين الصورتين تقابل بديع جاء على الترتيب؛ ليملأ القلوب مهابة وإجلالًا لله سبحانه، وخوفًا من قدرته القاهرة، مهابة وخوفًا يستلزمان "شدة القرب اللازم للحيلولة عن شدة الاقتدار على تبديل العزائم والمرادات، وهو تحريض على المبادرة إلى اتباع الرسول –صلى الله عليه وسلم– ما دامت القلوب مقبلة على ذلك خوفًا من تغييرها"(١). والاتباع والاستجابة بإقامة كافة الشرائع الإيمانية من غير إخلال بشيء منها؛ حتى يتحقق لهم أهلية حصول شرف الحيلولة بين قلوبهم وبين الكفر والعصيان، فلا يكون لهم رجوع إلا إلى الله. ومن دقائق النظم ولطائفه:

– حسن الاستدلال بالآية القرآنية، فالآية أمدت السياق بفيض الدلالة وتدفقها، ويُعد توظيفها مسوغًا بلاغيًّا من مسوغات التقابل الفني بين الصور؛ حيث سرعة حصول الإقناع؛ لقوة البراهين والحجج التي اقتضاها المقام، وثراء النظم بالمعاني الدلالية التي تسعى –في المقام الأول– لإرشاد النفوس، وتنبيهها لحسن الاتباع، والانقياد، والخلوص والطاعة. وحسن جمال انتظام الألفاظ والتآخي بينها في تساند، وتساو، وتشابك أخاذ.

– تكرار الفعل المضارع (يحول)؛ دلالة على استمرار وتجدد الحول، فهو حول لا تسطيع العقول أن تصل إلى إدراك قوته، وعظمته، وهيبته.

– المجاز العقلي في إسناد الحول إلى الله؛ "والمعنى: يحول شأن من شؤون صفاته، وهو تعلق صفة العلم بالاطلاع على ما يضمره المرء، أو تعلق صفة القدرة بتنفيذ ما عزم عليه المرء، أو بصرفه عن فعله"(٢).

النص الثالث، يقول ابن قيم الجوزية في سياق الحديث عن الكفر: "**أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة. فالكبر يمنعه الانقياد، والحسد**

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٥٣/٨.
(٢) التحرير والتنوير، ٣١٥/٩.

يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة. فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة. وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بلي بها ... وإذا استحكمت في القلب أرته الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، والمعروف في صورة المنكر، والمنكر في صورة المعروف، وقربت منه الدنيا، وبعدت منه الآخرة، وإذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئًا منها، وعليها يقع العذاب، وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها، فمن فتحها على نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلًا وآجلًا، ومن أغلقها على نفسه أغلق عنه أبواب الشرور"[1].

والنص قائم على الجمع بين المتقابلات؛ لإظهار صور التباين والاختلاف بين طرفي الصور والأحداث والمشاهد، وهذا باب من البلاغة يعمق المعاني في النفوس، ويزيد من الإحساس بما تحمله المعاني المتناقضة من دلالات، ومن مواضع المقابلة ما يأتي:

الصورة الأولى: في **(أرته الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، والمعروف في صورة المنكر، والمنكر في صورة المعروف)**، فجعل (الباطل) بإزاء (الحق)، وجعل (صورة الحق) بإزاء (صورة الباطل)، وهذا النمط الدلالي زاد في حسنه ومعناه عند اقترانه بصورة أخرى من صور المقابلة؛ حيث جعل (المعروف) بإزاء (المنكر)، وجعل (صورة المنكر) بإزاء (صورة المعروف)؛ تأكيدًا وترسيخًا للمعاني في غاية الدقة والإحكام، ونسجًا محكمًا متقنًا في بناء التراكيب. والغاية العظمى التي تسعى إليها المقابلة هي الترهيب الشديد، والإنذار الصارم من الكفر وموجباته، كـ(الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة)، فإنها آفات تقضي على منابع

(١) الفوائد، ص٢١٦-٢١٧.

الإيمان، من: (العبادة، والعدل، والنصيحة)، "**فالكبر يمنعه من الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة**"(١)، وهذا التهويل، والتخويف يدفع بالعاقل إلى التبصر في سوء المآل تبصرًا يرغبه ويُقوي عزائمه ليهدم أركان ذلك الكفر، ففي هدمها قيام للإيمان وموجباته، "**فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة**"(٢)، والجمل تتكون من بنى تركيبية، ذات تناظر دلاليّ بين معانيها، يقابل ثلاثة بثلاثة على الترتيب، ولكن بغير التضاد.

والصورة الثانية: في **(وقربت منه الدنيا، وبعدت منه الآخرة)**، قابل بين (القرب، والبعد)، وبين (الدنيا، والآخرة)، وهي إتمام وإكمال لمعنى سابقتها، تؤكد معانيها ترهيبًا من الكفر، وترغيبًا في هدمه.

والصورة الثالثة: في **(وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها)**، فخفة العذاب وشدته بحسب ما يقترفه من موجبات الكفر على خفتها وشدتها، وهي متممة مكملة لمعنى الصور التي قبلها.

والصورة الرابعة: في **(فمن فتحها على نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلًا وآجلًا، ومن أغلقها على نفسه أغلق عنه أبواب الشرور)**، فقابل بين (من فتحها، ومن أغلقها)، وبين (فتح على نفسه، وأغلق عنه). والحديث سلسلة متواصلة مترابطة متشابكة أتم ما يكون التواصل والترابط والتشابك بين الأجزاء، فقد حققت في النص قيمًا جوهرية في إنتاج الدلالة، ومما أسهم في نماء المعاني المتقابلة: حسن توظيف فنون البلاغة في نسج الكلام؛ إذ أنت في صور جمالية، دلالية، نفسية، ومن بين تلك الفنون:

---

(١) الفوائد / ٢١٦ ، ٢١٧.
(٢) السابق.

- **حسن التقسيم**؛ حيث ذكر جميع أركان الكفر، وما يترتب على الوقوع في تلك الأركان من المنع لأسباب الهداية والصلاح، وما يترتب على هدمها من القبول والهداية، بطريقة استوفى فيها جميع أجزاء المعنى بطريقة بديعة، تُعين القارئ على حسن الطاعة والانقياد.

- **حسن اللف والنشر**، حيث لجأ إلى إجمال جميع أركان الكفر من: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة، ثم فصلَ ما أجمل على الترتيب من غير تعيين، فذكر موانع إقامة كل ركن من أركان الكفر، ومسوغ هدم كل ركن من أركان الكفر؛ تشويقًا للمتلقي إلى المتابعة ومعرفة تفاصيل القول في أركان الكفر؛ للوقاية منها.

- حسن المبالغة في (وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة)، وما ذلك إلا لشدة خطرها، ولقوة فتكها، ولما يُحدثه الكفر من نقائص وآفات في العقل والنفس معًا.

- حسن السجع في (صارت هيئات راسخة، وملكات وصفات ثابتة)، وفي (الشهوة، العبادة)، وفي (وبذلها، أماكنها، بها، منها، وشدتها، نفسه)، وهذا الاتفاق دليل شدة ترابط النص وإحكامه؛ بحيث ينحدر على الأسماع انحدارًا يحرك النفوس لمراجعة المعاني، فتحصل الاستجادة والاستحسان لما يقتضيه السياق.

النص الرابع: يقول ابن قيم الجوزية في سياق بيان معية الله الخاصة لأوليائه: **(قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ (الفرقان:٥٥)، هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائمًا مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه. وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه. كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك، غير مهتمين به. والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه)**[1].

(١) الفوائد، ص١٠٨-١٠٩.

لقد جاءت المعاني في هذا النص واصفة لصنفين متلازمين، يتشابكان داخل السياق النصي، تشابك تغاير، وتنافر، وتباين؛ لما لهذين الصنفين من خصائص في غاية التناقض، فالصنف الأول ما يقوم به المؤمنون أهل الإيمان، من معيتهم لله، ومحاربة خطرات أنفسهم، وأهوائهم، والشيطان، فاستحقوا الوصف بحزب الله وجنده وأوليائه؛ لشرف ما هم عليه من الإخلاص، والانقياد، والاتباع. والمقابل لهم على النقيض تمامًا، ما يقوم به الكافرون أهل الكفر، من معيتهم للشيطان، والنفس، والهوى، ومعاداة الله، فأصبحوا "**معينًا لشياطين الإنس والجن على أولياء الله**"(١)، وعليه تكون صورة المقابلة كالآتي: (المؤمن دائمًا مع الله، يقابلها: الكافر مع شيطانه)، و(على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه، يقابلها: ونفسه وهواه على ربه)، والغاية التربوية منها: إعلام العباد بأن العبادة موالاة ومحبة وقرب منهم لربهم، تقودهم هذه العبادة إلى الولاء لله والمعاداة لأعدائه. ولا شك، فالمقابلة أثارت لونًا من الانفعال الشديد يحرك البشرية ويدفعها إلى التخلص من نكران النعم، ويوجب لها الحذر من بشاعة ما يصبو إليه الكفار عند معاداتهم لله، فكيف لهم أن يُعرضوا عن تعاليم الشرع إعراض عداوة، وسطوة، وشهوة.

ومن محاسن النظم:

- حسن المقابلة في: (فهو مع الله على عدوه الداخل فيه، والخارج عنه)، فقابل (الداخل بالخارج)، وقابل بين الحرفين (فيه، عنه)، فإن (في) فيها معنى شدة القرب والتمكن، و(عن) فيها معنى شدة البعد والتخلي، وقد أصابت حسنًا يؤكد شدة ولاء المؤمن لله في محاربة جميع المنكرات؛ احترامًا لجليل النعم، وخوفًا من سطوة العذاب.

- حسن التقسيم في: (على نفسه، وهواه، وشيطانه)، فالتقسيم استوفى جميع الأحوال التي تتحقق فيها الموالاة لله، والمعادة لأعدائه.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٣/٤١٠.

- مراعاة النظير في: (يحاربهم، يعاديهم، يغضبهم)، فهي أمور متناسبة تنحصر في السلوكيات الإيجابية لحصول معاداة أعداء الله في محاربتهم تارة، ومباغضتهم أخرى.

- حسن السجع في (نفسه، هواه، شيطانه، عدو ربه، حزب الله، جنده، سبحانه، أوليائه، الداخل فيه، الخارج منه)، وفي قوله: (يحاربهم، يعاديهم، يغضبهم)، فإن انتظام هذه الكلمات في سلك واحد مما أعطى النظم نغمًا موسيقيًّا يطرب النفس تارة، ويحفزها لمراجعة الكلام تارة أخرى.

النص الخامس: يقول ابن قيم الجوزية في سياق ضرب الحكم: **(إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسمًا وأمرضه قلبًا، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلبًا وأمرضه جسمًا، وأيم الله، لو مرضت قلوبكم، وصحت أجسامكم، لكنتم أهون على الله من الجعلان)**[1].

وهذا النص يُظهر فعل الإيمان المعنوي في حياة القلوب، وفي هذا ما يستدعي التركيز، والاهتمام، والاعتناء بشأن المعاني؛ حيث المفارقة الفاصلة بين فعل الكفر، وفعل الإيمان في الأجساد، والقلوب، عن طريقة المقابلة في **(ترون الكافر من أصح الناس جسمًا وأمرضه قلبًا، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلبًا وأمرضه جسمًا)**، فقابل أربعة بأربعة، الأولى: بين (ترون) و(تلقون)، والثانية: بين (الكافر) و(المؤمن)، والثالثة: بين (أصح جسمًا) و(أصح قلبًا)، والرابعة: بين (أمرضه قلبًا) و(أمرضه جسمًا)، فلشدة فخرهم بالكفر وأهله جعلوا حال الكافر أفضل من حال المؤمن؛ نقصًا في علمهم، وجهلًا في عقولهم، ومن هنا، وجب التحذير غاية التحذير، والترهيب غاية الترهيب؛ تخويفًا وإنذارًا من التفاخر بالكفر والضلال؛ لذا قال: (وأيم الله، **لو مرضت قلوبكم، وصحت أجسامكم،** لكنتم أهون على الله من الجعلان) على طريق المقابلة بين (مرضت قلوبكم) (وصحت

(١) الفوائد، ص٢٠٢.

أجسامكم)؛ تحقيرًا عظيمًا لشأن الكافر عند الله، وقد بلغ في غاية الحقارة أنه جعله أهون من الجعلان. ومن البلاغة والبيان في النظم:

- حسن الاقتباس من الحديث النبوي الشريف، قال أبو داود: حدثنا موسى بن مروان الرقي، حدثنا المعافى، حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني، أخبرنا ابن وهب، وهذا حديثه عن هشام بن سعد، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: «**إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام، وإنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن**»(١).

- براعة القسم في (أيم الله)، ودلالة التأكيد في (أنكم)، وحسن السجع في (قلبًا، جسمًا)، وفي (مرضت قلوبكم، صحت أجسامكم). ودلالة الفعل المضارع في (ترون، تلقون)؛ لاستمرار حصول هذا الصنيع منهم كل مرة وكل حين، وهو ملازم لهم، متجدد في سلوكياتهم. وحسن التمثيل في (أهون على الله من الجعلان)، واختيار (الجعلان) دون غيره.

فإن ائتلاف هذه الأساليب وتعاضدها في تأدية معاني التخويف، والإنذار، والبشاعة، والتحقير؛ مما زاد في رسوخ المعاني وتأكيدها، وهذا أثبت للمعنى في الذهن، وأقدر على تحقيق الابتعاد بما يملأ القوب مهابة؛ لشدة غضب الله من صنيعهم في التفاخر بما يفسد الدين ويضعفه، والمعنى غاية في تحقيرهم، وغاية في نهيهم، وغاية في إذلالهم؛ فهم عند الله أهون من دويبة سوداء تدير النتن بأنفها.

---

(١) سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (المكتبة العصرية، صيدا - بيروت)، باب: التفاخر بالأحساب، رقم الحديث (٥١١٦)، ٣٣١/٤.

النص السادس: يقول ابن قيم الجوزية في سياق الحديث عن أن الرزق والأجل قرينان مضمونان: **(فكهذا الرب -سبحانه- لا يمنع عبده المؤمن شيئًا من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه، وأنفع له، وليس ذلك لغير المؤمن، فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس، ولا يرضى له به؛ ليعطيه الأعلى النفيس، والعبد لجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه، لا يعرف التفاوت بين ما منع منه، وبين ما ذخر له، بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئًا، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان عليًّا، ولو أنصف العبد ربه، وأنى له بذلك؛ لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدنيا إلا ليتأهب منها للقدوم عليه، وليسلك الطريق الموصلة إليه، فـ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ (الفرقان: ٥٧)، والله المستعان)**[1].

وقد اشتمل النص على عدة مقابلات دلالية جاءت على النحو الآتي: الصورة الأول للمقابلة في **(فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس، ولا يرضى له به؛ ليعطيه الأعلى النفيس)**، مقابلة ثلاثة بثلاثة، الأولى: (يمنعه، يقابلها: يعطيه)، والثانية: (الحظ الأدنى، يقابلها: الحظ الأعلى)، والثالثة: (الخسيس، يقابلها: النفيس). والصورة الثانية للمقابلة في: **(لا يعرف التفاوت بين ما منع منه، وبين ما ذخر له)**، فقابل اثنين باثنين (منع، يقابلها: ذخر)، و(منه، يقابلها: وله)، مقابلة بين الحروف. والصورة الثالثة للمقابلة في: **(بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئًا، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان عليًّا)**، مقابلة ثلاثة بثلاثة، الأولى: (مولع بحب، يقابلها: بقلة الرغبة)، والثانية: (العاجل، يقابلها: بالآجل)، والثالثة: (وإن كان دنيئًا، يقابلها: إن كان عليًّا).

---

(١) الفوائد، ص٧٨.

والمقابلة في هذه المواضع تصور حال الكافر في الإعراض عما أمر به، والانشغال بما لم يؤمر به، فإن الله يمنعه الحظ الأدنى الخسيس ولا يرضى له بهذا القدر ليعطيه الأعلى النفيس، فالحرمان من الأمرين في غاية التحقير؛ لعدم الاعتداد بما يوجبه الشرع من الانقياد والتسليم، فهو مولع بحب الزائل الفاني من الدنيا رغم دناءتها، وبقلة الرغبة في الإقبال على الثابت الباقي من الآخرة رغم علو قدرها. ومن محاسن النظم في هذا النص:

- اقتران المقابلة بطباق السلب في (لا يمنع، ويؤتيه)، (المؤمن، غير المؤمن)، (فما منعه إلا ليعطيه)، ولا (ابتلاه إلا ليعافيه)، ولا (امتحنه إلا ليصافيه)، ولا (أماته إلا ليحييه)، ولا (أخرجه إلى هذه الدنيا إلا ليتأهب منها للقدوم عليه)، فطرفي التضاد أحدهما: منفي، والآخر: مثبت، وكذا طباق الإيجاب في (الليل، والنهار)، (منعه، آتاه)، (ما منع، ما ذخر)، فحقق الطباق بنوعيه السلب والإيجاب قيمًا فنية، وأبعادًا نفسية، ذات أثر بالغ في تحقيق الإقناع بتلك الحقائق الموجبة للتصديق، والمبرهنة على صحتها بموجب العقل والتفكير، فالذهن المتيقظ لمثل هذه الهبات والعطايا الإلهية يدرك كرم الرب وحكمته ولطفه، ويعرف التفاوت بين ما منع منه وما ذخر له.

- حسن السجع في (منه، له، نفسه، ربه، حكمته، لطفه، منه، له، ليعطيه، ليعافيه، ليصافيه، ليحييه، عليه، إليه) خلق جوًّا موسيقيًّا تنساب النفس فيه مع الكلمات، فتشعر بروعة المعاني في العطاء للمؤمن، والمنع للكافر.

**

الخاتمة

إنه من خلال البحث والاستقراء لأسلوب المقابلة عند ابن قيم الجوزية في كتابه (الفوائد)، ومن خلال الكشف عن منهجه في إيراد الأحداث والمواقف المتقابلة، وما يصحب التقابل من وظائف دلالية، جمالية، نفسية، ومن خلال الوقوف عند موضوعات الإيمان و نظيره الكفر على وجه الخصوص، ودراستها دراسة بلاغية، توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج، أهمها:

- وظف ابن قيم الجوزية المقابلة توظيفًا بلاغيًّا يوضح للمتلقي دور التشريع الإسلامي في ترسيخ مبدأ الوحدانية، ومبدأ التكاليف الإلهية، ومبدأ الترغيب والترهيب، فهي أسلوب تثقيفي ذو أبعاد دلالية، نفسية، جمالية، تجمع بين المتناقضات أو المتوافقات بطريقة مترابطة محكمة، تطوي وراءها: وعدًا ووعيدًا، وإغراءً وتحذيرًا.

- اهتم ابن قيم الجوزية في كتابه (الفوائد) بطرائق البلاغيين في توظيف أسلوب المقابلة، ومن بين تلك الطرائق:

١. مقابلة اثنين باثنين، وثلاثة بثلاثة، وهذا أكثر ورودًا، ثم مقابلة أربعة بأربعة، وخمسة بخمسة، وستة بستة.
٢. توظيف حسن الاستدلال من القرآن، والسنة، والأثر؛ لإبطال ما يدور في الأنفس المعاندة بالبراهين والحجج.
٣. دعوة المتلقي إلى المشاركة في إتمام ما حُذف من أركان المتقابلات؛ لإتمام بناء المعاني، وهي دعوة إلى إعمال العقل لإدراك ما في النص من مزايا بلاغية تتطلب قدرًا من التأمل والتدبر في المعاني وهيئاتها، وعلائق بعضها ببعض.
٤. الإشادة بالمفهوم الاصطلاحي الدلالي لأسلوب المقابلة؛ تتميمًا لفائدة التقابل.

- تُعدّ المقابلة من أساليب التشويق، فهي تمنح النظم الإيضاح والبيان، والإبلاغ والتبليغ، والتأثر والتأثير.

- أنتجت المقابلة في موضوعات الإيمان ونظيره الكفر صورًا كلية، تتسم بنمط عالٍ من الدقة والإيجاز، فالأحداث، والمشاهد، والمواقف تأتي في صورتين متقابلتين متغايرتين، تنقل الأولى مشهد الإيمان ترغيبًا، وتنقل الثانية مشهد الكفر ترهيبًا.

- يأتي التقابل منسجمًا مع أساليب بلاغية: كالطباق، وحسن التقسيم، واللف والنشر، والجناس، والسجع، وغيرها من الأساليب.

- تكسب المقابلة النظم حسنًا؛ حيث الترابط، والتماسك، والتلاحم، والانسجام، والإحكام بين المعاني، والتناسب والتوازن بين الألفاظ، وهذا يحقق في النظم بنى إيقاعية معنوية تولد نسقًا أسلوبيًّا دلاليًّا، بعيدًا عن التكلف، والتعقيد، والغموض.

**

فهرس المصادر والمراجع

- اتساع الرؤية القلبية للمعنى القرآني: العوامل والعوائق، محمود توفيق محمد سعد، (المجلة العلمية لكلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا، العدد الرابع، ١٤٤٠هـ-٢٠١٨م).
- أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، قرأه وعلق عليه: أبو فهر، محمود محمد شاكر، (دار المدني، جدة، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩١م).
- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، (دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م).
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، (مكتبة الآداب، ط١٦، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م).
- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، (مكتبة الخانجي، القاهرة).
- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، (دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان).
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، (القاهرة، ١٣٨٣هـ).
- التحرير والتنوير، محد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ).
- تقابل المعاني في سورة محمد، عبد العزيز بن صالح العمار، (مجلة العلوم العربية، العدد الخامس والعشرون، شوال، ١٤٣٣هـ).
- دراسات منهجية في علم البديع، الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت، (ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م).

📖 دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، (مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م).

📖 سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الاشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد ابن عمرو الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (المكتبة العصرية، صيدا - بيروت).

📖 سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وآخرون، (شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م).

📖 شرح أحاديث من صحيح البخاري، دراسة في سمت الكلام الأول، محمد محمد أبو موسى، (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م).

📖 صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: أحمد بن رفعت بن عثمان حلمي القره حصاري، ومحمد عزت بن عثمان أبو ليوي، وأبو نعمة الله محمد شكري بن حسن الأنقروي، (دار الطباعة العامرة، تركيا، ١٣٣٤هـ).

📖 كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، (المكتبة العنصرية، بيروت).

📖 علم البديع، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، بسيوني عبد الفتاح فيود، (مؤسسة المختار، ط٣، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م).

📖 العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ-١٩٨١م).

📖 العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، (دار الهلال).
📖 الفوائد، أبو بكر محمد بن قيم الجوزية، (دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).
📖 في ظلال القرآن، سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، (دار الشروق، بيروت – لبنان، ط١٧، ١٤١٢هـ).
📖 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الزمخشري، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ).
📖 لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور محمد بن مكروم بن علي الإفريقي، (دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ).
📖 معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، (مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠٠٧م).
📖 مقاييس اللغة، احمد بن فارس بن زكريا القزويني، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م).
📖 منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، (دار الكتب الشرقية).
📖 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة).
📖 نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي، (مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط١، ١٣٠٢هـ).

* * *